ذكريات معلمة

سهى علاونة

سهى علاونة

في أحد الأيام تلقيت اتصالاً من مؤسسة عبد المحسن القطان، يُطلب مني أن أكتب قصة عن حياتي مع التعليم. استغربت الطلب، بعد توضيح المطلوب، ضحكت ... حزنت ... شعرت بهزة في نفسي، كيف؟ وماذا أكتب؟ وكم أكتب عن مسيرتي التعليمية؟ مواقف مضحكة أو محزنة؟ وبسرعة رهيبة، بدأت الذكريات تنهال عليَّ، فقررت أن اكتبها على الورقة، كما هي مرتبة في ذاكرتي، ومن يقرأها منكم، يمكنه أن يرتبها كيفما يشاء.

صادف 2000/9/2 أول يوم دوام لي كمعلمة، بعد 16 عاماً قضيتها في الدراسة والتعلم. ركبت السيارة مع زوجي إلى اللبن الغربي. يا الهي ما أطول تلك الطريق وأجملها! ... أحراش أم صفا، خضرة أشجار السرو والصنوبر كانت تجذبني أكثر لرؤية الطريق بكل تفاصيلها، وأنا أهمس لزوجي أسرع .. أسرع! أريد الوصول إلى الصف، وأحمل الطبشورة، وألقي الصباح على الطلاب، وأقف أمامهم. كنت متشوقة لدرجة لا تصدق. المهم وصلت المدرسة، وحدث ما أريد، ومرّت الأيام، وأنا مستمتعة بعملي كمعلمة، كما أن محبة الطلاب لي زادتني حماساً.

ذات يوم، دخلت إلى الصف الثالث لمادة التربية الإسلامية، وكنت قد طلبت مرات عدة من الطلاب حفظ بعض الآيات القرآنية، لكن دون جدوى، غضبت من أحد الطلاب، وقلت له: "بكرة جيب أمك بدي أشوفها". تعالت أصوات باقي الطلاب "أمه ميتة يا مس". أصعب موقف، تلافيت الموقف، وقد أخفيت حزني ... "طيب ماشي، أي حد مسؤول عنك .. على أساس أنه بدون أم إشي طبيعي" ... كان ذلك الموقف أول درس لي كي أنتبه إلى الجانب الإنساني للطلاب، وليس التعليمي فقط.

إحدى طالباتي كانت مجروحة بأصبعها في الصف الخامس، "مال إصبعك؟" ... "كنت أحش بالمنجل يا مس" ... "يعني في ظلم وفي فقر، انتبهي" قلت لنفسي: "اجعلي حصتك قدر الإمكان بسيطة، وارسمي البسمة على وجوه طلابك". وهذا ما فعلته وأفعله إلى هذه اللحظة التي أكتب فيها. أحاول في بداية الحصة أن أمزح معهم، أنكشهم أضحكهم لمدة دقيقة أو دقيقتين، يمكن الطالب الذي أمامي ما ضحك في بيته بسبب المرض أو الفقر، أو موت عزيز عليه، أو مشاكل والديه أو ضرب أمه أمام عينيه.

في إحدى المدارس، درّست أربعة أخوة؛ أكبرهم في الحادية عشرة. كنت أشعر بصدق مشاعرهم نحوي، طبعاً ليسوا الوحيدين في المدرسة، ولكن هؤلاء الأخوة لهم وضع خاص، أدب، نظافة، ذوق في التعامل، تمنيت أن يكون لي أولاد مثلهم في المستقبل ... جاءني نقل فني كما أخبرتني دائرة التربية والتعليم بعد ست سنوات في مدرسة الذكور في منتصف العام الدراسي .. جاءني أحمد وهو أحد الأخوة الأربعة: مس شو اسمعنا ... بدك تنتقلي ... نعم ... لا ليش بدناش غيرك، أنا بصراحة ما عندي أخت احكي معها ... الثاني يبكي بنطلع على التربية ... بدناش ندرس ... يا الله شو

شعرت بالسعادة والحزن في الوقت نفسه، هذا ثمرة محبتي لعملي وليس راتبي – قلت لنفسي.

من المواقف الغريبة، وفي اليوم الأول لي في المدرسة، دخلت الصف الحادي العشر، كانت الحصة الثالثة بعدها طبعاً الفرصة ... انتهت الحصة، فمشيت نحو الباب وكان مغلقاً، وصلت الباب مع الطلاب، كنت أنتظر أن يفتح الباب لي بالأول .. بصفتي المس ... فتح، لكن كيف؟ بقدم محمد ... نظر لي ليرى ردة فعلي فواجهته بابتسامة مع استغراب فقط دون أن انطق بكلمة ... بعدها بأقل من دقيقتين جاء معتذراً ... هذه مهارة جديدة اكتسبتها في أول يوم في تلك المدرسة ... وهي كيف أتعامل مع طلاب ذكور دون مساعدة المدير والزميل ممن عرضوا علي مساندتهم لي على أساس أني مس صغيرة، وقد تفاجأ الجميع حتى المشرفة بهدوء أعصابي، ما ساعدني على الضبط والاحترام المتبادل، أكسب الطلاب دون صوت وصراخ أو ضرب كأساليب للضبط.

جاء أحد المشرفين لحضور حصة جغرافيا في الصف التوجيهي، وجلس قرب أحد الطلاب ... انتهت الحصة وقرع الجرس خرجنا ... لحق بي أحد الطلاب: مس الله يسامحك كنت أشّرلك طلعيني على الخريطة ما رديتي علي، كتبها المشرف ملاحظة عليكي، وفعلا عند المناقشة كان المشرف قد كتبها، وكنت في غاية السرور من طالبي وخوفه على تقريري.

جاء مدير عصبي ومش راضي عني هو جديد ... وأنا قوية على رأيه (جِكرة) كما وصفني ... وكنت أتأخر الصبح، كان عندي ولد، وحامل، وطريق سردا المغلقة، ما كنت أغلب الأيام أستطيع الوصول على الطابور ... لأنه وللأسف المدراء بعتبروا إشي مقدس أهم من الحصة ... المهم أجا يحضر لي حصة على التوجيهي ... مسك الكرسي اللي إلي وسحبه بقوة وجلس عليه طوال الحصة، وأنا حامل في الشهر التاسع ... أحد الطلاب: مس بدي أروح ع الحمام ... تفضل ... كان اسمه محمود ... دخل محمود ومعه كرسي إلي ... المدير تفاجأ من موقف الطالب تجاه معلمته ... .

كان في إلي زميلة تحكيلي: سهى أنا أول ما جيت على المدرسة كرهتك ... ليش ... المدير جنني وهو يحكيلي شوفي سهى كيف كسبانة الطلاب وبحترموها بدون ضرب وصوت ... عنجد كنت مبسوطة بمهنتي كمعلمة.

فجأة أعادتني الذاكرة وأنا طالبة في الصف الثاني، وتذكرت موقف معلمة اللغة العربية عندما صرخت ولا صوت ولا نفس، وأنا أول المطيعات بس كنت فاتحة الكتاب وأتبّع على أسطر الكتابة بالدرس ... تعالي ... تعالي ... نظرت بخوف أنا يا مس، والله ما عملت إشي، وبلمح البصر شدتني من شعري كانت بدينة وراسها كبير وتنورة قصيرة، ولفتني اكثر من مرة وهي شادة بشعري، طبعاً خربت التمشيطة اللي كانت كل يوم أمي تصحى باكراً تتفنن بشعري ... كرهتا وكرهت اللغة العربية وكرهت المدرسة لأجل هالموقف.

بالمقابل، لا انسى مسّة الرياضات لما تحكيلي ممتازة، وتلف برشاقة بتنورتها الحلوة، كنت أنتظر الحصة بفارغ الصبر.

كنت في التوجيهي عندما كنت واقفة مع معلمة اللغة العربية أنا وصاحباتي، لا أذكر بالضبط شو بدنا منها. أثناء الحديث نظرت إلي وقالتلي وإنتي يا إم خدود حمر ... كأنها بعدها حست إنها أحرجتني أزعلتني ما بعرف. انا ما زعلت منها لأني كنت متأكدة من محبتها إلي ... وبعدها بعتتلي رسالة مع إحدى طالبات الحادي العشر ... هي كانت حنونة، بس جدية في مادتها، وصارمة مع طالباتها ... فتحت الرسالة كانت عبارات محبة واعتذار ... ما أجمل تلك الرسالة ... يومياً كنت أقرأ كلماتها بتمعن ودون ملل، وأذكر مما كتبته لي (كل واحد منا يضع أهدافاً أمام عينيه قد يظفر بها أو ببعضها، وأنا أتمنى أن تحققي كل أهدافك) كان وقعها على نفسي جميلاً جداً ...

فجأة عدت معلمة، وأنا اكتب ذكرياتي كطالبة لكن هذه المرة موقف محزن: كان عبد الله طالب في الصف السادس، وكان مقعد، ويعاني من مرض ضمور العضلات، وهو ابن لزميلتي ... كنت أحبة وأحب النظر لوجهه المنير. في أحد الأيام دخلت الصف كمربية صف، وبدأت أطلب من الطلاب أن يهتموا بنظافتهم، وحسن مظهرهم، وقص شعرهم، ومن ضمن ما قلته ... شوفوا عبدالله زي القمر وجهه .. قصوا شعركم مثله ... تفاجأت بأمه ثاني يوم: سهى، عبدالله إمبارح إجا مبسوط، وحكالي انك حاكيتيلو إنه مثل القمر .. هو بحبك ومبسوط بحصصك ... أنا للأمانة ما كنت أشعره بعجزه ... مرت الأيام ومات عبد الله، ذهبت مع زميلاتي لواجب العزاء ... وأبكتني أمه بحرقة عندما وقفت لاستقبالي وهي تردد أجت حبيبة عبدالله ...

هاي القصة دايما بحكيها في كل الدورات التعليمية، لأوضح أثر التعزيز والتشجيع وعدم العنف اللفظي في نفوس الطلاب.

أخيراً أتمنى أن تكون ذكرياتي محط اهتمامكم، لأنها مهمة جداً بالنسبة لي، وأن يكون مروري عليكم خفيفاً لطيفاً، ولكم جزير الشكر على اهتماماتكم الرائعة.

مدرسة بنات رافات الثانوية